تطور النثر

في العصر العباسي

- ٢ -

إذا كان التطور معناه الانتقال من شكلٍ إلى شكل ، من صيغة إلى صيغة فقد يهمنا أن نعرف قبل كل شيء عوامل التطور في النثر العبّاسي ، ما الذي أثّر في هذا النثر حتى انفصل عن الأفق الذي كان متصلاً به ، أفق بني أميّة وصدر الإسلام .

كلّنا نعرف أن الأدب قبل بني العبّاس بحسب ما تناهى إلينا من آثاره كان لا يحيط إلاّ بأخبار العرب وأيّامهم وأشعارهم وخطبهم ونوادرهم ومُلَحهم ، وما شاكل هذه الأمور ، فقد كان بعيداً عن صور الحياة ومجتمعاتها ، وكان يعوزه التبسط في مذاهب الفكر كالفلسفة والاجتماع ، أو التبسط في العلوم كالرياضيات والفلك والطب وغير ذلك ، فلمّا جاء أبو جعفر المنصور استفاضت الترجمة فنقلت إلى العربية بعض كتب المنطق والطب ، ولمّا جاء المأمون ترجمت كتب بقراط وجالينوس وأرسطاطاليس وأفلاطون وقد كان الجاحظ يراقب كل حركة من حركات عصره ، فقد أشار إلى هذه الترجمة وهذا النقل لمّا قال : وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانيين وحوّلت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقص شيئاً . . . وقد نُقلت هذه الكتب من أمّةٍ إلى أمّة ومن قرن إلى قرن ومن لسانٍ إلى لسان ، حتّى انتهت إلينا وكنّا آخر من ورثها ونظر فيها . ثم ذكر بعض ما نقل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وترجم فأشار إلى ما في أيدي النـاس من كتب الحساب والطب والمنطق والهندسة ومعرفة اللحون والفلاحة والتجارة وأبواب الأصباغ والعِطر والأطعمة والآلات ، وأشار إلى كتاب الكون والفساد ، وكتاب العدوى ، وكتب ديمقراط وأبقراط وأفلاطون ، وفلان وفلان ، وقال : هؤلاء ناس من أمَّةٍ قد بادوا وبقيت آثار عقولهم وهم اليونانيون .

والكلام على الترجمة والنقل والكتب المنقولة بعيد مداه ، فمن أراد التوسع في هذا فليرجع إلى الفهرست لابن النديم ، وإلى طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، وإلى أخبار الحكماء للقِفطي .

لقد اختلط العرب في عصر العبّاسيين ببعض الأعاجم ، اتصلت بهم أخبار فريق من هؤلاء الأعاجم كالصقالبة والترك والروم والهند وفارس والحبشان والنُّوبة وأصناف السودان ، وتناهت إليهم أخبار الأكاسرة وعرفوا كثيراً من صفات نساء الروم وفارس والهند ، واستجلبوا العبيد من السند ، واشتروا الغِلمان للطبخ ، وربَّما سمّوا بعض سيكهم بأسماءٍ أعجمية ، فقالوا : سكة اصطفانوس وربَّما سمعنا أسماءً غير عربية مثل منويل وسموعين ونوفيل وميخائيل ، وقد خالط بعض اليونانيين العرب في أمصارهم فعرف العرب طائفة من نوادرهم .

كيف يمكن أن يتمّ في عصر بني العبّاس مثل هذه الترجمة ومثل هذا النقل ومثل هـذا الاختلاط من دون أن يكون لهذا كله أثر في تطور النثر . لقد دخلت أدبنا أفكار حديثة فاستلزمت صوراً حديثة تمثّلها للعقول وتقرّبها من الأذهان ، فبعد أن كان العقل لاصقاً بصور المادّة لا يحيط إلاّ بما تعانيه الحواسّ انسلخ بعض الشيء من هذه المادّة وتعلّق بالأمور المجرّدة ، فتغلغل في باطنه ، ففكّك أجزاء النفس وقواها وحسّها وتفكيرها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأخلاقها وطمح إلى ما فوق البشر وإلى ما فوق العالم ، فنظر في المبادىء والنتائج ، ونظر في العلل والقوانين ، ومن عكف على النظر في تطوّر اللغة والنثر في هذا العصر الذي نقلت في خلاله آثار اليونانيين والهند وفارس إلى العربية لا يتمالك أن يدهش للسان العرب وبيانهم ، وأن يقول ما أمرن هذا البيان ! ما أقدره على الحياة ! دخلته عناصر لا عهد له بها فقبلها ولم يعجز عن تمثيلها وتصويرها .

* * *

كان لا بدّ لي من هذا التمهيد لأننا لا نستطيع أن ندرك تطور النثر في العصر العباسي دون وقوفنا على عوامله ، على أننا لا نرى هذه العوامل وحدها ، فقد اختلفت أساليب الحياة في عصر بني العبّاس عمّا كانت عليه في العصور المتقدمة ، ومن قرأ كتاب الأغاني ورأى ترف الخلفاء والأمراء والعمّال ومن هم في طبقتهم عرف خصائص هذه الحياة ، لقد كثر الترف وكثر الفراغ مع هذا الترف ، فلم يعد للايجاز المكانة التي كانت له في عصور بساطة الحياة ولا سيّما في أيّام الخلفاء الراشدين ، لقد تكاملت الفتوحات وترامت أطراف الدولة فما على رجال السلطان وكتّابهم إلاّ التمتع من نتائج هذا الملك المديد الذي تمّ للمسلمين ، وممّا يدلّ على هذا الترف والإغراق في لذّة الحياة قول ابن قتيبة في مقدمة أدب الكاتب :

فالعلماء مغمورون ، وبكَرّة الجهل مقموعون حين خوى نجم الخير وكسدت سوق البِرّ وبارت بضائع أهله ، وصار العلم عاراً على صاحبه والفضل نقصاً وأموال الملوك وقفاً على شهوات النفوس ، والجاه الذي هو زكاة الشرف يباع بيع الخَلَق ! وآضت المروآت في زخارف النَجْد وتشييد البنيان ، ولذّاتُ النفوس في اصطفاق المزاهر ومعاطاة النَدْمان ثم قال : وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة أو وصف كأس ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد نجد في كتاب سحر البلاغة وسرّ البراعة جملاً تدلّ على ترف الحياة مثل وصف القصور والدور أو وصف مجالس الأنس وآلات اللهو أو وصف الغناء والشراب وأمور كثيرة من هذا النوع استلزمت نثراً خاصاً ، وهذه بعض جملٍ في وصف مجالس الأنس وآلات اللهو : مجلس نَوْره درّ ونارَنْجه ذهب ... عندنا أُترجّ كأنه من خلقك خُلق ، ومن شمائلك شُرق ... مجلس أخذت فيه الأوتار تتجاوب والأقداح تتناوب .. مجلس قد فُرش بساطه وبُسط أنماطه ومُدّ سماطه بين آس مخضود وورد منضود وناي وعود .. نحن بين بدور وكاسات تدور .. إلى كثير من أمثال هذه الجمل أخرجها الثعالبي من نثر بلغاء الكتّاب في عصره ، من أهل الشام والعراق والجبل وفارس وجُرْجان وخُراسان والطارئين عليها ، معنى هذا كلّه أن روح الجمل التي استشهدت بها كانت روح العصر كلّه الذي عاش فيه الثعالبي وهو بين القرن الرابع والقرن الخامس ، فهذا الطراز من الإنشاء وما يشتمل عليه من التفنن في التشابيه والاستعارات وغيرها استلزمته نضارة الحياة وترفها ممّا لا نظير له في عهد الفتوحات وبساطة العيش في ذلك العهد .

فلندخل الآن في موضوعنا وهو تطوّر النثر العبّاسي ، فما أيسر هذا الموضوع وقد عرفنا عوامله وأسراره وما أعسره فلسنا نعلم كيف الإحاطة به فقد تختلف أساليب النثر في أيّام بني العبّاس على اختلاف عصورهم وعلى اختلاف العلوم التي ظهرت في تلك العصور ، فلكل علم أسلوب خاص ولغة خاصة ، وكذلك تختلف أساليب الكتّاب فبعض الكتّاب له أساليب شتّى ، فالجاحظ مثلاً له أسلوب في وصف دقائق الحياة ، وأسلوب في وصف ما يتّصل بالأخلاق والفلسفة ، وأسلوب في الأدب وما شاكل ذلك ، ولكن هذه الاختلافات كلّها ، سواء أكانت اختلافات العصور أم كانت اختلافات الأساليب لا تحول دون تتبع موضوعنا على قدر الإمكان ولو بإشارات قليلة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اشتهر بتغيير أساليب الكتابة في الصدر الأول من العصر العبّاسي كاتبان من أبلغ كتّاب العرب وهما : عبد الحميد الكاتب وابن المقفّع ، أمّا عبد الحميد الكاتب فإنه يعدّ من عصر بني أميّة حتى كان أبو جعفر المنصور يقول : غلبنا بنو أميّة بثلاثة أشياء : بالحجّاج وعبد الحميد والمؤذن البعلبكي ، إلاّ أن تأثير عبد الحميد اتصل بالعصر العبّاسي حتى قال صاحب الوفيات : وعنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ولآثاره اقتفوا ، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل .

اشتهر عبد الحميد بالإيجاز كما اشتهر بالإسهاب ، والذي يهمنا إنما هو الإسهاب لأن هذه الطريقة هي التي اتبعها الناس من بعده ، فمن إسهابه مثلاً قوله في رسالته إلى الكتّاب .

لا يستغني الملك عنكم ولا يوجد كافٍ إلاّ منكم ، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يبصرون وألسنتهم التي بها ينطقون . .

ومن هذا النوع قوله في رسالته في نصيحة وليّ العهد ، أي إلى عبد الله ابن مروان في مقاتلة الخارجي الضحّاك بن قيس الشيباني :

أمّا بعد فإن أمير المؤمنين عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدوّ الله الجلف الجافي الأعرابي المتسكع في حيرة الجهالة وظلم الفتنة ومهاوي الهلكة ورعاعه الذين عاثوا في الأرض فساداً وانتهكوا حرمه استخفافاً وبدّلوا نعم الله كفراً ، واستحلّوا دماء أهل سلمه جهلاً ، أحبّ أن يعهد إليك في لطائف أمورك وعوامّ شؤونك وذخائر أحوالك إلى آخره . . .

وما أظن أنّ بي حاجة إلى الإشارة إلى مواضع الإسهاب ، وإذا قابلنا بين هذا النمط من الكتابة وبين النمط الذي اتّبعه الخلفاء الراشدون في الكتابة إلى عمّالهم وقوّادهم ظهر الفرق في أوضح مظاهره ، ظهر الفرق بين كتابة كأنها لمحة بصر وبين كتابة كأنها تدفق سيل .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلننتقل الآن إلى الكاتب الثاني الذي اشتهر في أول دولة بني العبّاس وأعني به ابن المقفّع ، سنعرف قريباً أسلوبه في الكتابة ، أي الأسلوب الجديد الذي حدث بعد العصرين المتقدمين ، فلنعرف الآن رأيه في الإنشاء فإنه قال لبعض الكتّاب : إيّاك والتتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العيّ الأكبر ، وقال لآخر : عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة ، وقيل له : ما البلاغة ، فقال : التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها .

إلاّ أن نصائحه هذه لم تكن مهملة قبله ، فلم نجد في خطب السلف الطيّب وحشي الكلام وإنما وجدنا فيها سهولة الألفاظ ، إلاّ أن ابن المقفع جرى على هذا الأسلوب في كليلة ودمنة من أول الكتاب إلى آخره ، فهو إمام التأليف في الألفاظ السهلة والبعد عن وحشي الكلام ، وأيّ محذورٍ في ذكر مقطع من كتاب كليلة ودمنة على الرغم من شهرته الطائرة :

زعموا أن قرداً رأى نجّاراً يشقّ خشبة بين وتدين وهو راكب عليها ، فأعجبه ذلك ، ثم إنّ النجّار ذهب لبعض شأنه ، فقام القرد وتكلّف ما ليس من شغله ، فركب الخشبة وجعل ظهره قِبَل الوتد ووجهه قِبَل الخشبة ، فتدلّى ذنبه في الشّق ونزع الوتد ، فالتزم الشق عليه فخرّ مغشياً عليه إلى آخره . . .

فما الذي نراه ، إن الذي نراه أن العبارة تجري بطبيعتها ، فلا تقديم ولا تأخير ، ولا تكلّف في تركيب الجمل ، فكأن الكلام جدول ينساب بين الرياض ، لا يعترض انسيابه معترض .

إلاّ أن هذا الأسلوب لم يتبعه ابن المقفع في كلّ كتاباته ، وليس معنى هذا أنه كان يميل في بعض كتبه إلى وحشي الكلام ، وإنما كان يغيّر تركيب الجمل ، فكتاب كليلة ودمنة الذي بُنيت حكمه على ألسن الحيوان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

احتوى كثيراً من هذه الحكم ، والحكمة لغتها سهلة حتى تتمكن من أذهان الناس ، فإذا اشتملت على وحشي الكلام لم ترسخ في الأذهان ، فابن المقفع تأثيره بكتاب كليلة ودمنة الذي لا يزال أسلوبه مضرب الأمثال في عصرنا وفي العصور القادمة ، لأن السهولة وحدها هي الخالدة على الأحقاب ، أمّا كتبه الثانية ، وإن لم تنحط عن منزلة البلاغة إلا أنها لم تشع شيوع كليلة ودمنة لأن فيها بعض التأنق في تركيب جملها ، من ذلك قوله في مطلع كتابه الذي سمّوه : الأدب الكبير : إنّا وجدنا الناس قبلنا كانوا أعظم أجساماً وأوفر مع أجسامهم أحلاماً ، وأشدّ قوةً وأحسن بقوتهم للأمور إتقاناً ، وأطول أعماراً وأفضل بأعمارهم للأشياء اختياراً . . .

ومن ذلك قوله :

وأحسن ما يصيب من الحديث محدّثنا أن ينظر في كتبهم فيكون كأنه إيّاهم يجاور ، ومنهم يستمع وآثارهم يتبع ، وعلى أفعالهم يحتذي وبهم يقتدي ...

هذه عبارات لم أجهد في اختيارها ، وإنما اخترتها عرضاً ، فهي تبيّن لنا عناية ابن المقفع بتركيب الجمل ، مرّة يفصّلها تفصيلاً ومرّة يقدّم ويؤخر ، ومثل هذه العناية لا نجدها في كليله ودمنة حيث تجري الجمل على طبيعتها دون شيء من التأنق .

فإذا بحثنا عن تطور النثر في أول العصر العباسي فهذه هي مظاهر هذا التطور ، سهولة لغة مرّة ، وعناية ببنيان الجمل وتفصيلها مرّة ، إيجاز مرّة وإسهاب مرّة .

وإذا شئنا أن نتتبّع كل كاتب من بلغاء الكتّاب الذين ظهروا في أيّام بني العبّاس وندخل في الذي أدخله على النثر من أساليب جديدة أو إذا شئنا أن نتتبّع كل عصر من عصور العبّاسيين ونرى ماذا حدث في ذلك العصر من آثار التطور لما كان لكلامنا نهاية ، فحسبنا قليل من الكتّاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في قليل من العصور ، وأعتقد أن هذا الاكتفاء يبلغ بنا بعض المراد في الوقوف على تطور النثر .

أحب أن ننتقل بعد تأثير عبد الحميد وابن المقفع إلى كاتب آخر يكاد يكون الإمام المنقطع النظير وهو الجاحظ الذي كتب في كل باب وخلق لكل باب أسلوباً خاصاً به .

لقد جاء الجاحظ بالأساليب المختلفة التي تدلّ على حقيقة تطور النثر ، فقد أحبّ الحياة حبّاً جمّاً فصوّر كل معرض من معارضها ولوّن كل صورة من الصور بحقائق ألوانها فكان إفصاحه عن شعوره بالحياة خالصاً من كل تصنع ، فألبس كل معرض من المعارض ضرباً من اللباس ، وجعل لكل صورة من الصور نوعاً من الخطوط والألوان جرياً على قاعدته : لكل مقام مقال .

هذا هو تطور النثر على يد الجاحظ أمّا الدخول في التفاصيل فهذا أمر يطول ، فقد تعلّق بحرية الصيغ ومرونتها ، فهو يتوخى الأساليب التي يخاطب بها الناس على مقادير عقولهم فمرّة يخاطب بلغة العقل ومرّة بلغة الحواس وهذا كلّه دليل على حرية عبقريته وحرية فنه .

لست في معرض الكلام على فن الجاحظ ، وإنما أتعرض لتطور الأسلوب في عصر الجاحظ فهو إمام هذا التطور في عصره .

قلت إن من تطوّر النثر في العصر العبّاسي أنه خلق لكل علم أسلوباً خاصاً فالفلسفة مثلاً مبنية على العقل ، فالجاحظ كان في ميدانها وفي ميدان العلم قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاداً لعُرْيان الكلام يستعمله ، نفوراً من معتاصه يهمله على نحو ما قاله البديع فيه .

فهذا هو تطوّر أسلوب الفلسفة في العصر العبّاسي ، لغة الفلسفة لغة العقل ، فهي مجرّدة والتجريد من خصائص الفلسفة ، فالفلاسفة والعلماء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في العصر العباسي انصرفوا في نثرهم إلى حلّ الأفكار والتنقيب عن صيغ العالَم ، فلم يلتمسوا من الألفاظ إلاّ دلالتها على الأفكار دلالة وجيزة ، فقد جرّدوا من العناصر التي تجعل لهذا النثر خصائص فنية على خلاف الكتّاب المترسلين الذين ملأوا كتاباتهم بأنواع البديع .

إني لا أترك الكلام على تطور النثر في عصر الجاحظ دون الاستشهاد بيسير من إنشائه في بعض الأبواب ، فمن فصل في صدر كتابه في الحاسد والمحسود حيث عرّف الحسد وذكر من أين هو وما دليله وأفعاله ، وكيف تعرف أموره وأحواله ، وبمَ يعرف ظاهره ومكنونه ، وكيف يُعلم مجهوله ومعلومه ، ولِمَ صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء ، ولِمَ كثر في الأقرباء وقلّ في البعداء ، وكيف دبّ في الصالحين أكثر منه في الفاسقين وكيف خُصّ به الجيران من بين جميع أهل الأوطان .. هذا كلّه كلام الجاحظ الخالي من كل نوعٍ من أنواع الزين ولقد عرّف الحسد على هذا الوجه :

والحسد أبقاك الله من داءٍ يَنْهَك الجسد ويفسد الأود ، علاجه عسير وصاحبه ضجِر ، وهو باب غامض وأمر متعذر ، ما ظهر منه فلا يداوى وما بطن منه فمداويه في عناء .. إلى آخر ما جاء في تحليل الحسد والكشف عن ظواهره وبواطنه ممّا لا يقدر عليه إلاّ عالم متمكن من علم النفس والأخلاق ، ولا نستطيع أن ندرك براعة الجاحظ في هذا التحليل إلاّ إذا رجعنا إلى الفصل كلّه ، وإنما جئت بالقليل من هذا الفصل على سبيل الاستشهاد ليس إلاّ ، وعلى كل حالٍ فقد عرفنا من هذا القليل رغبة الفلاسفة عن تنميق الكلام وتزيينه .

وما عمله في تحليل الحسد قد عمله في تحليل البخل في كتابه البخلاء حيث ذكر نوادر البخلاء واحتجاج الأشحّاء وما يجوز من ذلك في باب الهزل وما يجوز منه في باب الجدّ ، ولقد ضمّن كتابه أعاجيب البخلاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلا مناص عن الرجوع إلى هذه الأعاجيب حتى نشعر بقدرة الجاحظ على وصف جلائل الأمور ودقائقها ، ولم تكن قدرته على وصف الدقائق أقلّ من قدرته على وصف الجلائل ، ومن قرأ كتاب البخلاء وقف من جهة على التحليل الخلقي ، ومن جهة ثانية على وصف ما يتعلق بالدور من أكل وشرب وطبيخ وما شابه ذلك ، فهذا هو الأسلوب الجديد الذي خلقه الجاحظ في كتاب البخلاء في وصف ما يتعلق ببعض أمور الحياة ، مثل حياة الدور والمطابخ ونظائرها من دقائق المجتمع .

فإذا بحثنا عن تطور النثر في العصر العبّاسي فلا بدّ لنا من الرجوع إلى الأبواب التي خاض فيها الجاحظ ، لأنه قد خلق كما قلنا لغة لكل باب منها ، فلم يتعاظمه الكلام على الاجتماع ، أو على الأخلاق ، أو على التربية والتعليم ، أو على الطبيعة ، أو على التاريخ الطبيعي ، أو على فلسفة اللغة ، إلى غير ذلك من المباحث التي تدلّ على سعة عبقريته ، إنما المهمّ من هذه الإشارة أنه كتب في كل موضوع من هذه الموضوعات بلغة أصحاب هذا الموضوع ، فهذا هو التطوّر الذي نلمس آثاره في عصر الجاحظ ، ومن المؤسف أن المجال لا يتسع للاستشهاد بكل مقطع من مقاطع هذه الموضوعات ، فلا مندوحة عن الرجوع إليها والتدقيق فيها إرادة التوثق من كلّ ما ذكرنا ، وقد يؤدّي هذا الرجوع وهذا التدقيق إلى غرائب أكثر ممّا ذكرنا .

على أنّا لا نستطيع مغادرة الجاحظ دون الإشارة إلى عنصر جديد من عناصر تطوّر النثر وأعني به : الصورة ، لقد دخلت الصورة أدبنا في ذلك العصر ، فما هو فنّ المصوّر ، يقولون ان المصوّر يبحث عن الألفاظ الدالّة على المعاني من طريق الحقيقة دون المجاز ، المصوّر يبحث عن الألفاظ المحلية والألفاظ الفنية وعن صحة النعت .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلنعمد إلى صورة من صور الجاحظ ، كصورة قاضي البصرة عبد الله ابن سُوَار ، إنّا نجدها في كتاب الحيوان ، في الجزء الثالث ، من خصائص الصورة أن يفصّل المصوّر على وجه عام هيأة الموصوف ، كالكلام على قامته وعلى لونه وعلى عينيه وعلى شعره وعلى أسنانه وما شابه ذلك ، فيتكلم على محاسن هذه الهيأة أو على مساوئها ، فاذا فرغ من هذا كلّه تكلم على خصائص عقله فوصف محامد هذا العقل أو مقابحه ، ما بطن منها وما ظهر ، فإذا فرغ من هذا تكلم على قلبه فوصف مختلف عواطفه وأهوائه .

أهمل الجاحظ الكلام على هيأة القاضي ولكنه لم يهمل الكلام على جلسته :

يأتي مجلسه ، فيحتبي ولا يتكيء ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ولا يحلّ حَبْوته ، ولا يحلّ رجلاً على رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيه الخ ...

فإذا دققنا في هذه الألفاظ التي لجأ إليها الجاحظ وجدنا أنها بعيدة عن المجاز ، ولما اضطر إلى تشبيه هذا القاضي في وقار جلسته رجع إلى عادته في التشبيهات المحسوسة ، فشبهه ببناء مبني وبصخرة منصوبة ، فلم يغلُ في هذا التشبيه وإنما كانت الصورة على مقربة من حواسّنا .

ليست غايتنا المواظبة على تحليل هذه الصورة ، وإلاّ خرجنا عن موضوعنا ، وإنما الغاية الإتيان بشيء منها على سبيل الاستئناس ، ولا سبيل إلى ذوق محاسنها إلا بقراءتها كلّها من أولها إلى آخرها ، وتكاد تكون هذه الصورة مثال التصوير في أدبنا .

قد يكون في هذه الصورة شيء من النقص بالنسبة إلى قواعد الصورة في عصرنا ، فإن شروط الصورة لم تكن معروفة في عصر الجاحظ على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نحو معرفتنا إياها في هذا العصر ، وإذا أهملت بعض شروطها في عصر من عصور العبّاسيين فعلى كل حال إنها قد نشأت ولو ناقصة ، ولا ريب في أن نشوءها داخل في تطوّر النثر .

ويجدر بنا أن نشير إلى أسلوب آخر من أساليب هذا التطور وهو أسلوب السخرية والتهكم ، وكان الجاحظ إمام هذا الأسلوب في كتابه : التربيع والتدوير .

وكما نشأت ملامح الصورة في النثر العبّاسي فكذلك نشأت ملامح القصة ، ولا يقعن في خلَد أحدٍ أنّا إذا ذكرنا الصورة والقصّة فإنّا نزعم أنها مطابقتان للقواعد التي وضعها عصرنا لهذين النوعين من الأدب ، فإذا لم تكونا كاملتين على نحو ما يريده هذا العصر ، فعلى كل حالٍ ظهر أثرهما في الأدب العباسي بحسب روح ذلك العصر ، على أنّا قد نقرأ بعض قصص وردت في كتاب الأغاني فنجد فيها ما يسمّونه في أيّامنا : العرض واشتباك الحوادث والخاتمة ، وإن كان أصحابها يسردون هذه القصص دون أن تخطر ببال واحد منهم هذه الأمور ، أو نجد في بعضها أشياء من البساطة والحركة والحياة وغير ذلك .

وإذا كان لا بدّ من الاستشهاد فاني أستشهد بقصة عبد الله بن طاهر مع محمد بن يزيد الأموي الحصني الواردة في الجزء الحادي عشر من الأغاني ، وعلى الرغم من قصر هذه القصة فإنّا نجدها كأنها كاملة ، لأن القارىء لا يتردّد في موضع من مواضعها ، ولا يستوضح صاحبها أمراً من أمورها ، وهذا يرجع إلى أن حوادثها قد عرضت في أوضح معرض ، فكل حادثة منها مربوطة بعلتها وسببها ، وهذا النمط من تسلسلها المنطقي قد جعل فيها وضوحاً يغني عن كل استفهام واستيضاح .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد يكون نصيب هذه القصة من الوصف لا أثر له على أن القصة الصغيرة لا تحتمل صوراً كاملة ، وإذا لم يلجأ صاحب هذه القصة إلى اللغة الشعرية فإنه قد لجأ إلى تقطيع عباراته ، إلاّ أن كلامنا هذا لا يغني عن الرجوع إلى هذه القصة ومطالعتها للتثبت من انسجامها وتناسقها .

وقد نجد مثل هذا الانسجام ومثل هذا التناسق في قصة الأعرابي مع الأمير أبان بن عثمان في الجزء السابع عشر من كتاب الأغاني ، وإذا قلت إن هذه الرواية آية من آيات أدبنا فلا أبالغ في قولي .

وإذا ذكرنا القصة في هذا المقام فإنما نعني بذلك ما نمرّ به من هذا القبيل في بعض كتب أدبنا من قصص صغيرة يجوز أن نرى فيها شيئاً من ملامح فن القصّة ، وإن كان أصحابها لا يخطر ببالهم هذا الفن كما قلت ، فقد كتبوها ولم يتوخّوا أن يكون هذا الفن غايتهم ، أمّا ما أشارت إليه كتب تاريخنا الأدبي من قصص عنترة أو ألف ليلة وليلة وأبي زيد الهلالي والزير والملك سيف والملك الظاهر وعلي الزيبق وفيروزشاه ، وهي إما قصص موضوعة تمثل بعض الصفات الحميدة ، أو قصص منقولة عن فارس والهند ، أقول إن هذه القصص يحتاج الكلام عليها إلى بحث مستفيض ، وحسبنا الإشارة إليها ، وعلى كل حال فإنّا نرى فيها ما يدخل في تطور النثر .

ولست أدري هل يجوز لنا أن نترك الكلام على القصة في أدبنا دون الإشارة إلى قصة فلسفية صاحبها من الأندلس ، وأعني بها قصة حيّ بن يقظان لابن طفيل الأندلسي ، على أن ابن طفيل وإن كان أندلسيّاً إلاّ أنّ قصته دخلت ميراثنا الأدبي ، سواء أكان هذا الميراث عباسيّاً أم كان أندلسياً ، وقد شرح فيها أسرار الحكمة المشرقية ممّا يخرج عن موضوعنا ، وحسبنا القول أن هذه القصّة تدخل في تطور النثر ، فهي نموذج النثر الفلسفي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقبل أن أختم حديثنا هذا بذكر نوعٍ آخر من أنواعنا الأدبية وأعني به : المقامة ، فإني أحب التذكير بأن ما عرضته من الكلام على الصورة أو على القصة ليس إلاّ كلاماً مقتضباً ، إذ ليست غايتي التوغل في وصف هذين النوعين وشرح ما يحتاجان إليه من الشروط والقواعد ، أو تحديد أوّل من فكّر فيها ، وكيف تسلسلا في تاريخنا الأدبي ، فانتقلا من طور إلى طور على ممرّ هذا التاريخ ، فإنّ هذا وأشباهه قد يخرج عن موضوعي لأن هذا الموضوع ينحصر في بيان تطور النثر لا غير ، أي انتقاله من شكلٍ إلى شكل ، من صيغة إلى صيغة ، دون أن ألتفت إلى الأنواع الأدبية وتطوّرها على أيدي الذين شرعوا فيها وعالجوها ، فأبدعوا أو قلّدوا ، وجوّدوا أو قصّروا ، إن مثل هذه المباحث قد نجدها في كتب مستقلّة ، وهذه الكتب تشتمل على أكثر ما يهمّ القارئ من الاطلاع على أسرار هذه الأنواع وخصائصها .

وإذا وضّحت هذا التوضيح فما عليّ إلاّ الإلماح إلى بعض المقامات في أدبنا دون الإلماح إلى من اخترعها أو حوّلها من غاية إلى غاية ، إني لا أشير إلاّ إلى مقامات الحريري والبديع وأغفل عن غيرها من المقامات التي حدثت بعدهما ، ولا سبب في هذه الإشارة إلاّ صلتها بتطور النثر .

نوّه الحريري في مقدمة مقاماته بما تحتوى عليه هذه المقامات من جيد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزْله ، وغُرر البيان ودُرره ، ومُلح الأدب ونوادره ، وذكر ما وشّح به مقاماته من الآيات ، ومحاسن الكنايات ، ورصّعه فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجي النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبّرة ، والمواعظ المبكية ، والأضاحيك الملهية ، من هذا كلّه يتبيّن لنا أن الفن غالب عليها قبل كل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شيء ، فكأنها معرض لمنزلة الحريري في هذه الأمور التي ذكرها ولقدرته عليها ، ولكن هل كان الفن وحده غاية الحريري في إنشاء مقاماته ، أفلم يتوخّ شيئاً آخر ، أفلم يقل في مقدمته إنّه أنشأ مُلحه للتنبيه لا للتمويه ، ونحا بها منحى التهذيب لا الأكاذيب ، وهل هو في ذلك إلاّ بمنزلة من انتدب لتعليم ، أو هدى إلى صراط مستقيم .

فمقامات الحريري أراد بها صاحبها بعد الفن تصوير بعض مشاهد الحياة في عصره ، أراد بها موضوعات اجتماعية ، إلاّ أنه كتب هذه الموضوعات بلغة غلب عليها التأنق حتى بعُدت عن الطبع ، قد يجوز أنها كانت عنوان مكانته في الإنشاء ولكن الموضوعات الاجتماعية لغتها سهلة لا تأنق فيها ، وعلى كل حال إن مَثَل المقامات كمثل زيّ من الأزياء يظهر في موسم ثم يبطل في موسم آخر ، فالمقامات كان لها عصر ثم ذهب ذلك العصر ، فهي تدلّ على الذوق الأدبي في الأيّام التي عاش فيها الحريري ، وهو ذوق يختلف عن أذواق العصور المتقدمة كما رأينا .

ولا حاجة بنا بعد ذلك إلى الكلام على مقامات البديع التى صوّرت بعض معارض من الحياة ، أمّا الفرق بينها وبين مقامات الحريري من حيث الروح والتصوير وتنوع المشاهد أو وحدتها فهذا أمر نتركه لرجال تاريخ الأدب ، همّنا الوحيد التنبيه على أسلوب المقامات الداخل في تطور النثر ، وهو الأسلوب الغالب عليه الفنّ وزينته .

وقد نجد في بعض المقامات ولا سيما مقامة البديع المضيرية أسلوب التهكم وخفة الروح ، وقد خلق البديع لهذا التهكم ولهذه الخفّة الروح الخاصة بها على الرغم من السجع ، وقد يكون هذا السجع قد زاد في محاسنها لأن أغلبه جاء بالطبع ، ومثل هذه السخرية لا تخلو منها بعض كتابات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العصر الذي عاش فيه البديع ، من هذا القبيل طائفة من رسائل الخوارزمي ، ولست أدري هل رزقت لغة من اللغات ما رزقته العربية من القدرة في مفرداتها على وصف نظير الوصف في المقامة المضيرية مثلاً .

هذا آخر ما أردته من الإيجاز في الكلام على تطوّر النثر في عصر بني العبّاس ، وإذا أردنا التبحّر في معرفة هذا التطور فلا غنى لنا عن مراجعة بعض الكتب التي عملت في صناعة الكتابة ، فإن هذه الكتب ترشدنا إلى القواعد التي وضعها بعض أئمة الأدب للكتّاب والمتأدبين ، من ذلك مثلاً أدب الكاتب لابن قتيبة من القرن الثالث ، وفيه تنبيه على ما يجب على المتأدب معرفته من بعض العلوم كالهندسة وعلم الفلك والفقه وأصوله وأخبار الناس وعيون الحديث ، ولا ريب في أن لهذه العلوم لغة خاصة وأسلوباً خاصاً ، فالنثر لم يقتصر على صناعة الإنشاء وحدها ، وإنما جمع صناعة العلم معها ، أمّا لغة الأديب فينبغي أن تخلو من كل تقعير ، وأن يعرف صاحبها مواضع الإيجاز ومواضع الإطالة ، فلا يمكننا أن نجرّد هذه الأمور من صلتها بتطور النثر .

وقد نجد في كتاب سحر البلاغة وسرّ البراعة للثعالبي ما يدلّنا على تطور النثر في عصره من القرن الرابع والقرن الخامس ، فقد اختار جملاً من كتّاب عصره ، كما تقدمت الإشارة إليه ، تشتمل على التجنيس والتشبيه والاستعارة والطباق ممّا يمثل لنا روح النثر في العصر الذي عاش فيه الثعالبي وكتّاب ذلك العصر .

كما نجد في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري من القرن الرابع حدود البلاغة وفي ذكر هذه الحدود ما يدلّنا على خصائص النثر في ذلك العصر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن هذا القبيل رسائل كثيرة مثل الرسالة العذراء التي وضّحت موازين البلاغة وأدوات الكتابة ، وقد فصّل فيها صاحبها قواعد الكتابة وآدابها وفي هذه الكتب كلها ما يوضّح لنا عناية المتقدمين بصناعة النثر في العصر العبّاسي .

هذا منتهى ما استطعنا اختصار الكلام عليه من مظاهر تطوّر النثر في عصور بني العبّاس ، وهـذا موضوع على ما نظن متّسع الآفاق ، مديد الأبواب ، فالذي تبيّن لنا من هذا الاختصار أن النثر في أوائل العبّاسيين كان لا يخلو من سهولة اللغة كما هو واضح في كتابات ابن المقفع ، ولا سيما في كليلة ودمنة ، ومن الإسهاب كما هو ظاهر في رسائل عبد الحميد ، ومن علوّ البلاغة ومزيّة الطبع كما نجده في تآليف الجاحظ ومن مشى على آثاره ، ثم اختلفت أطوار النثر فدخل البديع أساليب الكتّاب فاهتموا بأنواعه وبالصيغة اللفظية ، فخرج النثر عن الطبع على الرغم من بلاغة بعض الكتّاب في القرن الرابع والقرن الخامس وامتدّ هذا الاهتمام حتى بلغ عصر القاضي الفاضل الذي اطلعنا على نمط من أسلوبه في المقابلة بين خطبة ابن الزبير في فتح افريقية وبين كتاب القاضي الفاضل إلى الخليفة العباسي على لسان صلاح الدين في فتح بيت المقدس ، ثم انحط النثر لفرط العناية بالصنعة .

فالذي استفدناه من بعض عصور بنى العبّاس سهولة اللغة مرّة والطبع مرّة مع المحافظة على البلاغة ، هذا إذا لم نبال بالعصور التي استفاضت فيها الصناعة اللفظية ، والمهمّ في الذي استفاده أدبنا إنما هو نشوء لغة خاصة بالفلسفة والاجتماع والعلوم على أيدي بعض الفلاسفة كالغزالي مثلاً ، وبعض علماء الاجتماع وعلى رأسهم ابن خلدون ، هذه اللغة الخالية من مفاسد لغة المترسلين الذين انصرفوا إلى الصناعة اللفظية .

لا شك في أن عصور العبّاسيين انتفعت بالترجمة والنقل من ناحية الفكر ، ولكن هل نستطيع أن نقول إنها انتفعت من ناحية الأسلوب بمن ترجمت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كتبهم أو نقلت إلى العربية ، إن مثل هذا الأمر لا تتمّ معرفته إلاّ بالمقابلة بين اللغات الثلاث : لغات الروم وفارس والهند ، وبين لغة الذين كتبوا في الفلسفة والعلوم من فلاسفة العرب وعلمائهم ، ولست أدري هل تمّ شيء من هذه المقابلة ، وهل وصلنا إلى نتائج واضحة في هذا المعنى ، فالذي لا شك فيه أن الانقلاب الفكرى كان نتيجة الترجمة والنقل والاختلاط ، أمّا الانقلاب النثري فالذي أعتقده أنّ أبطاله كانوا بلغاء كتّابنا وفلاسفتنا وعلماءنا ، فهم الذين بفضل عبقريتهم وعبقرية اللغة خلقوا لما ترجموا ونقلوا لغة من طبعهم خاصة بالموضوعات المستحدثة .

أجل لقد انتفعت ثقافتنا بالترجمة والنقل ، فقد جدّدت وجوهها ، والتجديد على نحو ما قاله أحد الكتّاب الفرنسيين في كتابه . النزه الأدبية إنما هو غذاء الأدب ، إننا لا نستطيع أن نتغذّى بموادّ بدننا وحدها . لقد اقتبست فرنسة عناصر إبداعها من آداب غيرها من الأمم ، وقد كان هذا الإبداع يتجدّد في كلّ عصر ، وقد اقتبست آداب أوروبة على اختلافها معظم مادّتها التي سكر بها أعاظم العبقريين من الأدب الفرنسي ، وهل من سبيل إلى فهم « غوتي » مجرّداً من الثقافة الفرنسية ، أم هل من سبيل إلى فهم « شاتوبريان » مجرداً من الثقافة الإنكليزية .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net